الخـــــلان والزمان (*)

بين أبي فراس والبارودي

للاستاذ محمد محمد الحوفي

(تتمـــة)

ويقرن أبو فراس الدهر بالخلان مكرراً ذلك في غير موضع :

فهو يستنكر أن يعاتب أحداً ، لأن العتاب إنما يكون للأوفياء والناس كدهرهم غادرون :

ما لي أعاتب ما لي أين يذهب بي ... قد صرح الدهر لي بالمنع والياس
أبغي الوفاء بدهر لا أنيس به ... كأنني جاهل بالدهر والناس

والدهر متحالف مع خلانه على الخيانة :

يادهر خنت مع الأصادق خلتي ... وغدرت بي في جملة الإخوان

والأيام حية لبست ثوب ناصح :

تصاحبنا الأيام في ثوب ناصح ... ويختالنا منها على الأمن أرقم

ويكرر هذه الصورة فيقول :

تكاشرنا الأيام فيمن نحبه ... ويختلنا منها على الأمن أرقم

وفي أرجوزته الطردية ، يعرج على الدهر فيرميه بالجور والغدر :

ما أجور الدهر على بنيـــه ... وأغدر الدهر بمن يصفيه

ولا يزال الدهر يتمثل لأبي فراس في كل شيء حتى في عيادة سيف الدولة فقد أخرّه الدهر عنها :

لقـــد نافستني الدهر (م) بتأخيري عن الحضرة

ويزهو بكثرة حساده ، وحقد دهره عليه :

ولم أر مثلي أكثر الناس حاسدا ... كأن قلوب الناس لي قلب واحد
ألم ير هذا الدهر قبلي فاضلا ... ولم يظفر الحساد قبلي بماجد !

ولما كان هذا الدهر هو « صهيونية » أبي فراس الذي يبغضها وتبغضه ، وينازعها وتنازعه — رأى أن السلامة والسعادة هي النجاة من غوائل الدهر ، ولذا تراه يدعو لأصدقائه أن يقيهم الله صروفه فهو يدعو لصديقه وقريبه أبي العشائر ، ألا يمسه الدهر بسوء في أية حال :

لعمّا يا أخي لامسك الدهر إنه ... هو الدهر في حاليه بؤس وأنعم

ويدعو كذلك لقريبه أبي زهير بأن يوقى بلايا الدهر :

يا ابن نصر وقيت صرف الليالي ... وصروف الردى وكر الخطوب

(*) انظر العددين رقم ٧٣٦ ، ٧٣٩ من الرسالة

دهر البارودي

وكما نعى أبو فراس على دهره ، ينعى البارودي على دهره ؛ لأن البواعث متشابهة ، بل هي واحدة : فقد مات والد البارودي وهو في السابعة من عمره فلما شبّ تلفت حواليه ليدفىء قلبه بحنان أبيه فلم يجده ، فهاج على دهره الذي غال أباه وما كان قد تملاه .

وكان البارودي سليل المماليك وممتزاً بنسبه كأبي فراس ، وتربى في المدرسة الحربية ، وطابعها السيادة والعزة يومئذ ، ولذا لم يكن يدخلها غير أبناء الطبقات الراقية ، فقوت هذه التربية الحربية نزعة الكرامة والاعتزاز في نفس البارودي .

وشعر البارودي أنه فوق أقرانه بعبقريته الحربية : إذ هو أول من أبلى في حرب إقريطش ، وفي روسيا ، وسطع نجمه في سماء القيادة الظافرة .

وأحس كذلك أنه عبقري في السياسة : فقد كان أثير الخديو وأمين سرّه ورسوله في المفاوضات ، وتقلب في مناصب عالية ، فكان مدير الشرقية ، ثم محافظ العاصمة .

وكذلك في عهد توفيق عين مدير الأوقاف ، ثم ناظر الحربية مع الأوقاف عند ما ثار الجند على ناظر الحربية عثمان رفقي .

ولأمر ما وشى رياض باشا رئيس الوزارة إلى الخديو توفيق بأن البارودي يحابي الشعب ويؤثر مصالحه على مصلحة الخديو ، فاستقال .

ولما أسندت الوزارة إلى شريف — لم يقبل البارودي الاشتراك فيها حتى ألحّ عليه الخديو توفيق واستسمحه ، ثم استقال شريف ، فرأس البارودي الوزارة وفي هذا الحين قامت الثورة العرابية ، فكان من أمرها أن نفي البارودي مع المنفيين.

وكذلك أحس البارودي أنه عبقري في الشعر : إذ كان شعراء عصره أمثال الساعاتي ومحمود صفوت يتكسبون بشعرهم ، وكانوا يقلدون الشعراء المتأخرين في تكلف المحسنات البديعية التي تنسيهم جمال المعنى ، ولم يبتكر هؤلاء الشعراء المعاصرون للبارودي جديداً ، أو يحيُوا من التراث الأصيل تليداً ولكن البارودي جاء فأحيا القديم ، وولد منه الجيل الكريم ، ولم يتكسب مثلهم بشعره ، فعزت منزلته في نظر الناس وفي نظر نفسه

وبعد : فليس عجيباً أن أدرك البارودى سمو مكانته النسبية والحربية والسياسية والشعرية — أن تحدثه نفسه بأن يستولى على العرش حينما فكر الضباط فى خلع الخديو ، ولا سيما أنه سليل المماليك ، ملوك مصر السابقين .

وإليك هذه الأبيات التى اقتبستها من قصيدة له ، لترى فيها طمع البارودى فى أن يستعيد ملك أجداده :

لكننا غرض للشر فى زمن أهل العقول به فى طاعة الخول
قامت به من رجال السوء طائفة أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه بغضاً، ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل فى خلل
وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة بعد الإباء وكانت زهرة الدول

إلى أن يقول :

فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم ولا تزول غواشيكم من الكسل
وتلك مصر التى أفنى الجلاد بها لفيف أسلافكم فى الأعصر الأول
قوم أقروا عماد الحق وامتلكوا أزمة الخلق من حاف ومنتعل
فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة يكون رده ألكم فى الحادث الجلل

***

تلمس فى هذه الأبيات إشارة إلى ضعف الخديو واضطراب أمره ، ودعوة مستورة إلى أن يحل محله شهم أخو ثقة ، يريد البارودى نفسه ، ومن لها غيره ؟ وهو الحربى الظفر والسياسى المحنك والشاعر الأبى ، وهو بعد ذلك سليل المماليك ووارث ملكهم .

قلنا ما تقدم لنخرج منه إلى أن البارودى نشأ يتيما ، ولابد لليتيم أن يعتمد على دنياه ، وكان سليل أسرة مالكة اندثرت ، فلا بد أن يذم الدنيا التى أدالتها ، وكان يتطلع إلى إعادة مجدها فلم يفلح ، فنقم على حظه ومعاكسة زمانه . وكان يثق بعبقريته الحربية والسياسية والشعرية ، ومع ذلك أهين كغيره فى الثورة العرابية ، ونفى نفياً قاسياً ، فجرح هذا العقاب عزته وكبرياءه ، فسب دهره الجائر .

وهل رأيت عند أبى فراس أسباباً للنقمة على دهره غير هذه الأسباب التى ذكرتها للبارودى أخيراً ، وسيخيل إليك لقوة الشبه بين الأسباب أننى سأعيد عليك شعر أبى فراس تحت اسم البارودى :

فكما كان الدهر حية رقطاء فى شعر أبى فراس ، يكون فى رأى البارودى ثعباناً لادغاً ، أو ذئباً مراوغاً ، وليس الدهر ملهاة أو ملعبة ، ولكنه أزمات وفجائع ، تبخل بالسعادة على المكدود ، وتجود على الوادعين الرقود :

ألا إنما هذى الليالى عقارب تدب وهذا الدهر ذئب مراوغ
فلا تحسبن الدهر لعبة هازل فما هو إلا صرفه والفجائع
ألا إنما الأيام تجرى بحكمها فيحرم ذو كد ويرزق وادع

ولا عهد للدهر ، يفتك بالآمن ، ويخرس القوالة اللسن :

إن الحياة وإن طالت إلى أمد والدهر قُرحانُ لا يبقى ولا يذر
لا يأمن الصامت المصموم صولته ولا يدوم عليه الناطق البَذِر

ولما كان الدهر فى رأى البارودى مقياس القوة والتأثير شبّه الشعر به فى رفع الوضعاء وإسقاط الشرفاء ، وتراه يكرر الدهر أربع مرات فى كل هذه الأبيات الأربعة :

للشعر فى الدهر حكم لا يغيره ما بالحوادث من نقص وتغيير
يسمو بقوم ويهوى آخرون به كالدهر يجرى بميسور ومعسور
صحائف لم تزل تتلى بألسنة للدهر فى كل ناد منه مهجور
لولا أبو الطيب المأثور منطقه ما سار فى الدهر يوماً ذكر كافور

وكأنما يريد البارودى بذلك أن يعلى الشعر على الدهر ، وأن يغيظ الدهر البغيض بما ينسبه للشعر وحده من فضل وفخر .

وكما يدعى أبو فراس ثباته أمام صدمات الدهر ، وأن عزيمته لا يمسها وهن أو كسر ، وكذلك لا يفوت البارودى هذا المعنى فيقول :

وإنى امرؤ تأبى لى الضيم صولة مواقعها فى كل معترك حمر
أبى على الحدثان لا يستفزنى عظيم ولا يأوى إلى ساحتى ذعر
إذا صلت سال الموت من وكراته وإن قلت أرخى من أعنته الشعر

ويقول وهو أضعف حماسة من سابقه :

فإن تكن الأيام ونقن مشربي ... وثلمن حدى بالخطوب الطوارق
فما غيرتني محنة عن خليقتي ... ولا حولتني خدعة عن طرائق
ولكنني باق على ما يسرني ... ويغضب أعدائي ويرضى أصادق
فحسرة بعدي عن حبيب مصادق ... كفرحة بعدي عن عدو مماذق
فتلك بهذي والنجاة غنيمة ... من الناس والدنيا مكيدة حاذق

* * *

وكما تجلد أبو فراس أمام ريب الدهر، ثم عاد فأبدى تخاذله وضعفه يعود البارودي كذلك بعد تشجعه وتأبيه، فيستسلم للدهر ويقرر أنه اضطر إلى الصبر، ولولا اللوم لملع وجزع:

صبرت على ريب الدهر ولولا المعاذر لم أصبر

ويعزو إخفاقه إلى عجزه وتخاذل طاقته لا إلى جهالته:

فلا تحسبني جهلت الصواب (م) ولكن همت فلم أقدر

ويعجب أن يرد الهرمان عوادي الدهر وفي هذا ما يشعر بتهيب البارودي له وحذره من نوازله:

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر
لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
بناءان ردّا صولة الدهر عنهما ... ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر

* * *

وكما لم ينس أبو فراس الدهر وأحداثه وهو حظي بلقاء حبيبته مشغول بمحادثتها فيقول:

فقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا ... فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر
وقلبت أمري لا أرى لي راحة ... إذا البين أنساني ألح بي الهجر
فعدت إلى حكم الزمان وحكمها ... لها الذنب لا تجزى به ولي العذر

فكما ترى في هذه الأبيات أن أبا فراس أسلم نفسه لحكم زمانه وحبيبته، واستكان لسطوتها وسطوته — ترى أن البارودي أيضاً خفض جناحيه لعيني حبيبته وخضع لجمالها كما خضع للدهر وقوته، حيث يقول:

لها لفتة الخشف الأغن ونظرة ... تقصر عن أمثالها الفتكة البكر
ترد النفوس السالمات سقيمة ... وتفعل ما لا تفعل البيض والسمر
خفضت لها مني جناحي مودة ... ودنت لعينيها كما حكم الدهر

* * *

وكما اعتذر أبو فراس عن إخفاقه بأن الدهر حاربه وغالبه فقال:

تطالبني بيض الصوارم والقنا ... بما وعدت جدي في المخايل
ولكن دهراً دافعتني صروفه ... كما دافع الدين الغريم المماطل

يعتذر البارودي كذلك بجبروت الزمان، ودوائر الحدثان:

فإن كنت قد أصبحت في الرزية ... تقاسمها في الأهل باد وحاضر
فكم بطل قل الزمان شباته ... وكم سيد دارت عليه الدوائر

وبعد فهذا الذي ذكرناه من دهريات البارودي قليل من كثير اتخذناه شاهداً على اتحاد الفكرة عند البارودي وأبي فراس اتحاداً عجيباً. وكأنما بعث الله في البارودي روح أبي فراس، .. فرجّعت ما قاله شاعر حمدان فيما قاله شاعر المقياس، أو كأنما عاد التاريخ فصار زمان أبي فراس هو نفسه زمان البارودي وصار كذلك ناسه هم الناس.

محمد محمد الحوفي
معهد التربية العالي للمعلمين

وزارة العدل
التفتيش الاداري والكتابي
إعـــلان

تعلن وزارة العدل المصالح والجمهور أن دفتر الزواج رقم ٢١٤٧٣٨ عهدة الشيخ حسن عمر خليل مأذون ناحية السقالته التابعة لمحكمة السنبلاوين الشرعية فقد ومقيد به المعقود من نمرة ١ إلى نمرة ١٦ وباقي أوراقه وعددها ١٤ عقدا بيضاء بخلاف صورها.. فكل من عرض عليه هذا الدفتر أو بعض أوراقه أو وجدها بأي الطرق أن يعلم أنها عديمة القيمة وأن استعمالها يعد من باب التزوير ويعرض مستعملها للمحاكمة الجنائية ومجازته بما يقضي به القانون.

٧٩٥٠